

ميثافيزيقا المرض

مصطفى الطالب، استاذ الفلسفة بالثانوي التأهيلي، مجاز في علم الاجتماع، كلية الآداب والعلوم الإنسانية جامعة ابن زهر-المغرب

ملخص: تعد هذه الدراسة استجابة للنقاش العمومي حول الإشكالات الأنطولوجية والميثافيزيقية للمرض بالنظر إلى حالة الهلع والخوف التي انتابت العالم بفعل تفشي فيروس كوفيد19. والظاهر أن البشرية اليوم، وما أبانت عنه الأحداث، تفزع أيما فزع من هذه الواقعة الوجودية، أي المرض، بما ينبئ عن ميثافيزيقا متوارية خلف تلك المظاهر على مستوى الأحاسيس والتصورات وردود الأفعال. وهي ميثافيزيقا معادية تماما للوجود، فهي تخفي وراءها وعيا زائفا بانفصام الوجود الإنساني عن الوجود العام، بل وترى أن أشكال وتمظهرات التحول(الضعف، المرض، الموت...) على مستوى الوجود تحمل للإنسان في كثيرا منها الشر، بما يفضي بالإنسان إلى معادة صيرورات الابداع الكوني المتصور خطأ على أنها تهدد الوجود الذاتي وتقدمه في الوجود العام، فيما أن الوجود الإنساني هو دوما وعلى الدوام حال في الوجود العام ومحايث له في شتى أشكال الصيرورة تلك.

الكلمات المفتاحية: ميثافيزيقا المرض، ميثافيزيقا معادية للوجود، ميثافيزيقا متصالحة مع الوجود، محايث.

Metaphysics of the disease

Prof.mustapha taleb

Abstract: This study is a response to the public debate on the ontological and metaphysical problems of the disease, given the state of panic and fear that has afflicted the world due to the outbreak of the Covid 19 virus. It seems that mankind today, as shown by the events, is terrified by what is terrifying of this existential event, that is, the disease, which reveals a metaphysical concealment about those manifestations at the level of sensations, perceptions and reactions. It is a completely hostile metaphysics to existence, it hides behind it a false awareness of the detachable of human existence from the general existence. Rather, it considers that the forms and manifestations of transformation (weakness,

disease, death ...) on the level of existence carry to human being in many of them evil; leading the human to antagonize the processes of cosmic creativity mistakenly perceived as threatening self-existence and destroying it in the general existence. Whereas, the human existence is always and always a state in the general existence and immanent to it in all of these forms of becoming.

Key words: Metaphysics of the disease, Anti-existential metaphysics, Philosophy reconciled with existence, immanent.

مقدمة:

إن الغاية من هذه المقالة البحثية هي الكشف عن الميثافيزيقا الثابوية وراء مفهوم المرض كما عبر عن ذلك الحس العام المشترك للبشرية بعد تفشي فيروس كورونا المستجد. وفي سبيل ذلك، كان لابد من البحث في مضامين الخطاب المتداول حول الظاهرة على عدة مستويات: الشعبي العامي والعلمي والسياسي والإعلامي. وبالمحصلة، فإن المقالة تنطلق من زعم مؤداه أن الخطاب المهيم حول ظاهرة تفشي فيروس كورونا المستجد هو خطاب معادي للوجود، خطاب يكشف عن مفهوم المرض كصراع بين الوجود الإنساني والوجود العام. وليس لهذا الخطاب ولا لذلك المفهوم من أساس سوى ميثافيزيقا الإنسان الحديث، الإنسان المتموقع خارج الطبيعة، الإنسان المتسيد على كل ما حوله، والذي لا يرى سوى ذاته في هذا الوجود.

رغم ما يقوم به رجال العلم والسياسة وكل قطاعات المجتمع الإنساني في سبيل مواجهة الفيروس والنتائج المترتبة عنه على الإنسان، صحة واقتصاداً، إلا أن كل تلك الجهود تظل عاجزة عن تخليص الإنسانية مما هو أكثر خطراً عليها، أي من أزمتها الوجودية في العالم، التي ليس تفشي الفيروس المستجد سوى أحد مؤشراتهما. من هنا، تبرز أهمية دور الفلسفة كوعي بهذه الأزمة على مستوى الوعي ذاته. إن الأزمة الفعلية والحقيقية التي تواجه الإنسانية اليوم ليست هي هذا الفيروس أو ذلك، بل هي أزمة وجود ناتجة عن وعي بالذات وبالعالم على أساس التقابل بل والصراع، وعي يفصل الإنسان عن مجاله الحيوي، ليموقعه في مجال متعالي متوهم يشقى به الإنسان الحديث. إن الفلسفة وحدها ما يمكن أن يحررنا من هذه الأزمة الوجودية، بأن تصالح الإنسان مع الوجود، ولن يتأتى ذلك إلا بهدم تلك الميثافيزيقا المتعالية على الوجود وتجاوزها إلى ميثافيزيقا أخرى تتأسس على وعي إنساني محايب للوجود.

1. سؤال الفلسفة وسؤال العلم:

ونحن في خضم أزمة فيروس كورونا المستجد التي أربكت الوجود الإنساني أفراداً وتنظيمات، تتعالى دعوات الاستغاثة والمناشدات للبحث عن حل لتجاوز هذا التهديد الذي يمثل تحدياً كبيراً للإنسانية اليوم. وإذا كانت مختلف الأنظار تتجه صوب دين الحداثة، أي العلم، وبشكل خاص علم

البيولوجيا في مختلف تفرعاته الدقيقة (البيولوجيا الحيوية، وعلم الأوبئة، والبيوكيمياء، والمكروبيولوجيا...)، فإن ذلك لا يعني أن الفلسفة مستبعدة من أي نقاش حول الازمة؛ "الفلسفة واحدة من أكثر الاهتمامات البشرية سموا وضالّة في آن معا. فهي تعمل في أصغر الزوايا المظلمة وهي تفتح آفاقا واسعة. وهي لا تصنع خبزا، كما يقال، لكنها تمنح ارواحنا الشجاعة... ولا أحد فينا يستطيع الاستمرار والماضي على هذا الدرب دون شعاع ضوئها المنتشر بعيدا ويعم آفاق العالم" (وليم جيمس، 2014، ص17-18). قد يكون العلم اليوم، هو مصدر فهم ومعالجة المرض كظاهرة بيولوجية، أي كخلل عضوي، إلا أن العلم لم ولن يجيبنا عن سؤال المرض كحتمية وجودية بما يطرحه من إشكالات وجودية تسائل وجودنا الإنساني وحدوده وعلاقته بالوجود عامة. وعطفا على ذلك يتساءل مارتن هايدغر (Martin Heidegger) عن مدى قدرة العلم على أن يطرح السؤال عن اللاشيء، أي عن العدم؟ ومما لا شك فيه، حسب هايدغر، أن العلم يرفض كل سؤال عن العدم. وهنا تبرز حدود العلم والحاجة إلى الفلسفة كشرط لإمكانية الفهم الذي يتعدى الكائن ذاته، "...صحيح أن الإنسان يتعامل أيضا في كل حركاته وسكناته قبل العلم مع الكائن، إلا أن امتياز العلم يتمثل في أنه يعطي الكلمة الأولى والأخيرة على نحو خاص به وبكيفية صريحة للشيء ذاته وللشيء وحده، في هذا الرضوخ للشيء عند السؤال والتحديد والتعليل يحصل خضوع محدود بكيفية خاصة للكائن ذاته" (مارتن هايدغر، 2002، ص18).

إن سؤال المرض كسؤال فلسفي ليس الهدف منه إبراء الأبدان، لأن الفلسفة، وكما نشأت في اليونان، كمغامرة فكرية ليس الهدف منها إنقاذ أرواحنا على حد تعبير راسل. فالفلسفة لا يمكنها أبدا أن تدعي القدرة على تقديم علاجات أو حلول عملية للمرض خاصة وللواقع عامة، فتلك اليوم، مهمة حقول ومجالات معرفية أخرى. ولئن كان "لا يمكن تطبيقها أو الحكم عليها وفقا لمعيار منفعتها في النمط أو الظرفية نفسها التي نحكم بها على علم الاقتصاد مثلا أو المعارف المهنية الأخرى؛ فإن ما هو عديم الجدوى أو النفع يظل مع ذلك قوة، ربما القوة الوحيدة الحقيقية" (مارتن هايدغر، 2015، ص207). إن مهمة الفلسفة، وهدف الفيلسوف، هو المعنى. المعنى الذي يمكن للفلسفة، على لسان الفيلسوف، تقديمه للحياة ولوجودنا الكوني والفردي (لهذا كانت النظريات الفلسفية كما جسدها الرواقيون تأملا في الكلي، بحثا عن المعنى في الكوسموس وإسقاطه على الوجود الإنساني، ومن ثمة على الوجود الفردي)، وهو وحده ما يمكن أن يوقعنا كموجودات في الوجود الموقع الصحيح. والصحيح هنا ليس بمعنى الحقيقي بقدر ما يقف عند حدود المناسب لنا بما يعزز مكانة الموجود في الوجود، وبما يحقق للوجود ديمومته.

لا شك من أن نظرة الفيلسوف للمرض ليست هي نظرة عالم البيولوجيا والطبيب، فعالم البيولوجي يقف عند حدود التفسير المادي للمرض كخلل عضوي، والطبيب يسعى إلى معالجة هذا الخلل العضوي بناء على التفسير البيولوجي عبر وسائل مادية عضوية. بهذا ليس المرض سوى خلل/عطل/وظيفة يفقد الموجود العضوي (الكائن الحي) توازن وانتظام الوظائف الحيوية لأجزائه، وهو ما يسميه عالم البيوكيمياء الفرنسي جاك مونو (Jacque Monod) العضوية (L'organisme). معظم تلك الأعطاب والاختلالات تحدث على مستوى الوجود

العضوي/الحيوي بفعل أسباب مادية عضوية (البكتيريا والفيروسات)، بعد أن كان المرض خاضعا لتفسيرات بدائية، قبل اكتشاف الميكروبات في منتصف القرن التاسع عشر، فكان يعزى المرض للإرادة الإلهية أو اصطفا الكواكب على خط واحد! (دورثي اتشكروورفورد، 2014، ص14). ومن هنا، يبدو الفكر العلمي فكرا سببيا ماديا يقف عند حدود العلة المادية. لكن إذا كان المرض ظاهرة بيولوجية كما ينزع الى ذلك التفسير العلمي، فإن مختلف الكائنات الحية هي الأخرى تعيش تجربة المرض!؟

2. ما المرض؟ ولماذا نمرض؟

سؤالان وإن بدا أنهما يطرحان حول نفس الموضوع، إلا أنهما يختلفان اختلافا جذريا من حيث المنطق العقلي الذي يطرح كل واحد منهما، ومن حيث الإجابة التي يفترضانها. فأن نسأل ما المرض؟ فهذا ما يمكن للفلسفة ان تطرحه وهي تسائل المرض كتجربة وجودية يعيشها الإنسان، وهو ما لا يمكن للعلم أن يطرحه، لأن العلم لا يسأل أسئلة ماهوية تسائل ماهية الشيء والمعنى الذي تنطوي عليه تلك الماهية في علاقته بوجودنا الإنساني(مارتن هايدغر، 2015، ص14-21)، إن العلم وهو يفكر في المرض، فإنما باعتباره تفكيرا سببيا، أي أنه يقف عند الشروط المادية لوجود الشيء في إطار العلاقة المنطقية(سبب=نتيجة). لهذا، يطرح العلم سؤال لماذا نمرض؟ أي، ما الأسباب/العلل المادية للمرض كنتيجة/معلول؟

هذان السؤالان المتوازيان اللذان يقطعان نفس الموضوع، أي المرض، دون أن يتقاطعا، بل إن تقدم كل واحد منهما يفترض عدم تقاطعهما من حيث الرؤية ومنطق التفكير، يعبران عن التمايز الحاصل بين طبيعة السؤال الفلسفي والسؤال العلمي. هذا الأخير الذي أخذ الشكل التام لطبيعته المتفردة عن الأول منذ بدايات استقلال العلوم الطبيعية عن الفلسفة في القرن 17م، وليس سؤال ما المرض؟ في مقابل سؤال لماذا نمرض؟ سوى نموذج واحد من عدد كبير من النماذج حول قضايا يبرز فيها الاختلاف الجذري بين طبيعة السؤال الفلسفي والسؤال العلمي. ولعل أبرز نموذج لذلك هو الاختلاف ما بين سؤال الفيلسوف حول الحياة وسؤال عالم البيولوجيا، فالفيلسوف لا ينفك عن طرح سؤال ما الحياة؟ وعن التأمل في طبيعة وماهية الحياة ومعناها إن كان لها معنى. فيما يكتفي العالم بالتساؤل عن مظاهر الحياة وشروطها المادية الحيوية. فشتان أن نسأل: ما الحياة؟ وأن نسأل: ما مظاهر الحياة؟ إن طبيعة الفكر/منطق التفكير تلقي بظلالها على طبيعة السؤال، ومن ثمة على طبيعة الجواب كذلك. فحينما سعى أرسطو إلى تجاوز المأزق الذي وضع فيه المتدققون الفلسفة، وعلى رأسهم هيرقليطس(Heraclitus): "انت لا تنزل النهر مرتين لأن مياه جديدة تتدفق أبدا"، أسس لفكر ماهوي، من خلال مبدأ الهوية الذي هو العمود الفقري للمناطق الأرسطية. ولكي يتجاوز الادعاء الهيرقليطي من أن كل الأشياء في تغير مستمر، وأن لا شيء ثابت، وهو الأمر الذي يفرض إلى إنكار وجود حقيقة ثابتة للأشياء، عمد أرسطو(Aristote) إلى القول بوجود ماهية، أي جوهر ثابت للأشياء في مقابل أعراضها المتغيرة والتي انخدع بها هيرقليطس وغيره من المتدققين. هذا المنطق في التفكير، والذي كان أرسطو واعيا به حينما عرف المنطق بأنه آلة الفكر، جعل أرسطو يتساءل تساؤلا ماهويا بخصوص القضايا الفلسفية،

إنها الميثافيزيقيا الأرسطية التي طبعت تاريخ الفلسفة ولا تزال رغم كل ما يقال عن تجاوز الميثافيزيقا (مارتن هايدغر، 2015، ص207).¹ وعطفا على هذا الفكر الميثافيزيقي، فإن السؤال الفلسفي الصحيح حول الحياة كان لدى أرسطو هو ما الحياة؟ فكان بذلك أرسطو مؤسس المذهب الاحيائي (Le vitalisme) الذي طغى على الفلسفة عبر تاريخها. هذه الميثافيزيقا الارسطية التي عبر عنها السؤال الماهوي انتجت ميثافيزيقا موازية على مستوى الجواب، لأن جواب أرسطو وغيره من الاحيائيين (ومنهم الفلاسفة المسلمون كابن سينا في كتاب "النجاة" وابن طفيل في "حي بن يقظان") يعتبرون بأن مبدأ الحياة هو جوهر ماء، وليس هذا الجوهر سوى النفس. وعليه، فإن الحياة تتبع من هذا الجوهر اللامرئي، فإن كانت المادة (الهيولي) تفسد، فإن النفس لا تفسد، إنها لا تنتمي إلى عالم الكون والفساد عالم المادة المتحول (أرسطو طاليس، 2014).

3. المرض العضوي والنفسي كميثافيزيقا معادية للوجود:

إن ما يهمنا هنا هو السؤال الفلسفي ما المرض؟ على اعتبار أن ما بيناه سابقا كفيل بإثبات أن سؤال لماذا نمرض هو سؤال العلم، وبخاصة علوم البيولوجيا وعلم النفس والطب العَضوي والنفسي. فما يشكل مجال تفكيرنا هو الميثافيزيقا التي تتوارى وراء الفهم الذي يتبدى جليا من خلال التصورات التي ينطوي عليها المرض بمعنييه العَضوي والنفسي.

إذا كانت الأشياء تعرف بأضدادها، فإن تحديد ماهية المرض يرتبط أساسا بتحديد ماهية مقابله الذي هو الصحة، لأن لفظة المرض اللاتينية (Mal Habitus) تحيل على الحالة السيئة، أي ما معناه أن المرض انحراف عن الحالة الأصلية التي هي الحالة الجيدة والسوية بالنسبة للشخص، أي حالة الصحة. فما الصحة؟ أي ما معنى أن يكون الشخص في حالة صحية جيدة؟ إن الشخص ككيان ذاتي، أي كوعي مستقل نسبيا عن محيطه الطبيعي بما يوحي له بالاستقلالية الوجودية عن الوجود العام، يستشعر التهديد والخطر الذي يتهدد دوما هذه الاستقلالية الوجودية بالاضمحلال في الوجود العام. والألم ليس سوى مؤشر/علامة على إمكانية هذا الانحلال، ومن ثمة فقدان استقلالية الجوهر الذاتي الذي هو الشخص. إن الألم إحساس باختراق الكيان الذاتي من قبل عناصر خارجية عليه تهدد ديمومته، إنه فقدان للتحكم الذاتي في الكيان المادي/الجسد وانفعالاته، فليس المرض سوى فقدان السيطرة الذاتية على هذا الكيان المتلاحم المعبر عنه بالشخص. من هنا نفهم طبيعة الاحساس بالألم العَضوي كإحساس دخيل على هذا الكيان، كإحساس مزعج مخيف (مخيف لأنه يستشعر من خلاله التهديد المنظور بالاضمحلال/الموت) ومقلق (المصير الغير منظور المحتمل بفعل الاضمحلال). وبالتالي، فليست الصحة شيئا آخر سوى الخلو من ذلك التهديد من خلال غياب الاحساس بالألم، أي غياب انفعالات الجسد الناتجة عن اختراق الكيان الذاتي بما يهدد الوعي في ديمومة استقلاليته النسبية. من كل ما سبق، فإن المرض كتوصيف بشري لحالة وجودية، يعيشها الإنسان كموجود واع بوجوده الذاتي كشخص مستقل نسبيا عن الوجود العام، هو الوعي باحتمالية فناء هذا الكيان الذاتي الذي هو الشخص. ولئن كان بالإمكان فهم المرض العَضوي بهذا المعنى، فماذا عن المرض النفسي؟

إذا كان الشخص ككيان ذاتي مستقل نسبيا عن الوجود العام، فإن تموقعه فيه كوجود خاص، يجعله قادرا كوجود ذاتي ضمن وجود موضوعي على أن يؤسس لوعي ثنائي: وعي ذاتي ووعي موضوعي. وما المرض النفسي أو العقلي سوى تعبير عن اختراق لحميمية هذين الوعيين، أي فقدان الشخص للقدرة على التموضع في الوجود كوعي مستقل، أي كذات مستقلة بأحاسيسها وانفعالاتها وأفكارها عن محيطها الذي يشكل عالم آخر موازيا لعالمها الداخلي، والتي تسعى دوما للمحافظة على مسافة وجودية بينها وبينه وإن كانت مدركة لحتمية تقلبات تلك المسافة. لذلك، يدرك الشخص من جهة ثانية، أن عدم القدرة على التفاعل مع الوجود الموضوعي، أي البيئة الخارجية له المادية والإنسانية يهدد هو الآخر كينونته. من هذا المنطلق نفهم الطبيعة الثنائية للمرض النفسي، فهو من جهة ناتج عن صعوبات/اختلالات على مستوى الوعي الذاتي(الفصام، فقدان الذاكرة ...)، ومن جهة ثانية ناتج عن صعوبات/اختلالات على مستوى الوعي الموضوعي(التوحد، الرهاب...)، والرابط بينها، أي اختلالات الوعي الذاتي والوعي الموضوعي، هو ما تمثله للشخص من تهديد ككيان ذاتي مستقل نسبيا. لهذا ليس من الغريب أن تؤسس مدرسة التحليل النفسي براديجمها النظري في تفسيرها للمرض النفسي على مفهوم التوازن، أي أن الصحة النفسية ماهي إلا تحقيق للتوازن والمحافظة عليه بين مختلف مكونات الجهاز النفسي من جهة، أي المحافظة على تماسك الانا وحميمية وعيها بذاتها في مواجهة تهديدات(الهو، والانا الأعلى) التنشطي الداخلية، وفي مواجهة ضغوطات الواقع الخارجي التي تمثل هي الأخرى للأنا تهديدا مستمرا قد يفضي بها إلى الانقطاع عن العالم الخارجي من جهة ثانية(سيغموند فرويد، 1982). إن المرض النفسي كالمرض العضوي يمثلان تهديدا للشخص، إنهما مؤشران على اختراق الوجود العام للكيان الذاتي، إنهما نذير باجتياح الأول للثاني، انه نوبان للجزء في الكل. المرض بهذا المعنى حنين الوجود الكلي العام للوحدة، فالكل واحد(طاليس، ابن عربي، سبينوزا...).

4. هل المرض شر؟

إن المعنى الميثافيزيقي الذي نلحقه بالمرض دون أن نعي ذلك يجعلنا نهايه، بل نرى فيه أسُّ الشر، فهو نذير شؤم بالنسبة لنا على إمكانية الفناء(فليس من الغريب أن تكون كلمة فيروس مشتقة من كلمة لاتينية تعني السم، باعتباره المسبب الرئيسي للأمراض المعدية)، على استحالة الكينونة. فهل تشكل هذه الميثافيزيقا الوجودية التي تستتر وراء هيبة الكائن البشري من المرض الأساس الميثافيزيقي لوسم المرض بقيمة الشر؟ فهل علينا أن نخاف المرض؟ وهل المرض شر؟

تلك إذن، هي الميثافيزيقا التي تعبر عنها حالة الهلع والخوف من المرض التي تتملك البشرية اليوم بفعل انتشار وباء فيروس كورونا. ونحن نحلل ونفكك هذه الميثافيزيقا، فإنما كي نؤسس لميثافيزيقا أخرى جديدة، ولقد كان كارل مانهايم(Karl Mannheim) الأكثر شجاعة في طرح إمكانية أن يكون كل تحليل أو نقد للإيديولوجيا هو الآخر إيديولوجيا (بول ريكور، ص235-251)، فلا يمكن أن ندعي محاولة هدم وتجاوز ميثافيزيقا دون أن تكون هناك ميثافيزيقا أخرى تحركنا، إلا انها ميثافيزيقا مفكر فيها، وإن كانت لا تدعي أنها الحقيقة المطلقة، الأرضية الصلبة

والاخيرة، الاساس والعمق الذي لا شيء بعده، لأنه ليست هناك حقائق بقدر ما هنالك تأويلات، وهي الأسس اللاواعية للميثافيزيقا(فريدريك نيتشه، 2010). إن الميثافيزيقا التي يتأسس عليها الفهم السيئ للمرض لدى البشرية هي ميثافيزيقا لا يمكنها أن تموقعنا الموقع الصحيح في الوجود، إنها ميثافيزيقا العدا، التي تبتث قيم الخوف والقلق والحقد والكراهية والعنف... تجاه الوجود، إنها تصور للوجود كصراع بين الكيان الذاتي والوجود العام. ومن ثمة، نفهم امتدادات هذه الميثافيزيقا الوجودية الى ميثافيزيقا الأخلاق، والمعبر عنها بمنظومة القيم الثنائية: الخير في مقابل الشر. تصور هذه الميثافيزيقا المرض على أنه شر، وأيما شر، ما دام المرض يشكل تهديدا للكيان الذاتي، بل السبب الرئيسي لفنائه في الكيان العام، إنه اختراق لاستقلاليته وحميميته، لذلك لا غرو أن يفهم المرض، في نطاقها العدائي للوجود العام، على أنه يمثل شرا للكيان الذاتي. فهل علينا أن ننظر للمرض كشر؟ وقبل ذلك، هل على الموجود أن يعادي الوجود؟

5.في الحاجة إلى ميثافيزيقا متصالحة مع الوجود:

لا جدال في أن البشرية اليوم قد راكمت كما كبيرا من المعرفة حول الطبيعة والانسان، بل إن ما تنتجه وما تستهلكه من معرفة في ظل مجتمع المعرفة لا يكاد يقارن بكل ما أنتجته عبر تاريخها. "تخلق تقنيات المعلومات والاتصالات بيئة معلوماتية جديدة سوف تقضي فيها الأجيال القادمة معظم وقتها، وإذا كانت الثورات السابقة التي أحدثت الرخاء، لا سيما الزراعية والصناعية منها، قد أحدثت تحولات واسعة النطاق وواضحة للعيان في أنساقنا الاجتماعية والسياسية وبيئاتنا المعمارية، وفي كثير من الأحيان من غير تبصّر كافٍ، فكثيراً ما كانت تصاحبها آثار وتداعيات مفاهيمية وأخلاقية عميقة. ليست ثورة المعلومات أقلّ دراماتيكية؛ سواء فُهمت على أنها ثورة ثالثة من حيث خلق الرخاء، أو ثورة رابعة من حيث إعادة صياغة مفهومنا عن أنفسنا، وسوف نكون في مأزق خطير إن لم نأخذ مأخذ الجد حقيقة أننا نخلق البيئات المادية والفكرية الجديدة التي ستستوطنها الأجيال القادمة"(الوتشيانو فلوريدي، 2017، ص34-40-269). لكن، هل يعني ذلك بدهاءة أن البشرية اليوم أكثر حكمة من أي وقت مضى؟ هل امتلاك هذا الكم الضخم من المعرفة التقنية التي مكنت البشرية من التحكم في الطبيعة والانسان جعلها أكثر حكمة؟

قد يمدنا العلم بالمعرفة التي تمكننا من السيطرة على الطبيعة بمعناها العام، وهو مشروع الحدائة كما عبر عنه النموذج الديكارتي(René Descartes)على مستوى الطبيعة المادية(مشيل فوكو، 1990، ص158)، والنموذج الفيبري(Max Weber) على مستوى الطبيعة البشرية. فالعقلنة باعتبارها سعيها الى توسيع المجالات الاجتماعية التي تخضع لمعايير الحسم العقلاني؛ تجعلنا أكثر تحكما في الإنسان بما يقصي الأهواء والميولات الذاتية للأفراد؛ ومن ثمة الزيادة في المردودية والفعالية في العمل(والتي تمحور نقد هربرت ماروكز(Herbert Marcuse) لها وللمشروع الفيبري في كتابه الإنسان ذو البعد الواحد، على اعتبار أنها تشييء للإنسان). إن امتلاكنا للمعرفة التقنية، أي المعرفة التي تمكننا من تفسير الوجودين المادي والانساني واستغلالهما أيما استغلال، هو أحد أهم فتوحات العقل التقني، إلا أن هذا العقل التقني/الادائي الذي أسس للعلم الحديث

ومنتجاته التقنية ليس مجرد منطق في التفكير وأداة محايدة، بل هو رؤية للعالم، إنه إيديولوجيا مدمرة للوجود (يورغن هابرماس، 2003).

الإنسانية اليوم أكثر من أي وقت مضى في حاجة ماسة إلى الحكمة، أي إلى الفلسفة، فهي وحدها النور الذي يمكن أن نرى من خلاله تجليات الإبداع في الوجود، والذي ليس وجودنا الذاتي سوى تجليا من تجلياته. كل التحولات التي تطرأ على وجودنا ليست سوى حركة الإبداع تلك الدائمة: الولادة/الموت، الصحة/المرض، اللذة/الألم، الفرح/الحزن، الحركة، الزمن.. وهي توصيفات بشرية تخفي وراءها تصورات ميثافيزيقية معادية لسيرورة الإبداع الكوني، وهو الأمر الذي سعت العديد من الفلسفات إلى تصويبه من خلال تأسيسها لنظريات تصالح الموجود بالوجود، وفتح أبواب الفهم العميق للوجود ولمختلف صيروراته التي تؤرق الموجود الإنساني وتحمله على معاداته، نظرا للفهم السيئ لها. وتعد الرواقية والابيقورية من أبهى تجليات هذا المسعى الحكمي للتصالح مع الوجود؛ لهذا، نفهم المنحى التشاؤمي لفلسفة آرتور شوبنهاور (Arthur Schopenhauer) الذي حدد للوجود ثلاث خصائص: كان على رأسها عبثية الوجود، ثم انتفاء غاية للوجود أو الإرادة العمياء، إضافة إلى الألم والملل (آرتور شوبنهاور، 2003، ص165-166). إن الميثافيزيقيا المفكر فيها المؤسسة على الحكمة المتبصرة ترى في كل أشكال الإبداع تلك تجليات لشيء واحد هو الوجود. إنها جمالية الإبداع الكوني الكامنة في الوجود الذي ليس الوجود الإنساني سوى نور من أنوارها. ومن هن، فإن لهذه الميثافيزيقا المتصالحة مع الوجود، والتي ندعو لها، الملامح الكبرى التالية:

- الحكمة كأساس لفهم الوجود والحياة لا العلم؛

- الفهم الغائي للوجود بدل التفسير السببي؛

- النظر للوجود الذاتي كامتداد للوجود العام لا كوجود آخر مفارق له؛

لا شك أنه من الصعب على البشرية المتشعبة بقيم الميثافيزيقيا المعادية للوجود، بما فيها وجودها الذاتي الذي تعاديه هو الآخر دونما وعي منها، أن تتصور إمكانية التصالح مع الوجود بمختلف أشكاله الإبداعية من خلال الميثافيزيقيا التي تستلزمها الحكمة. كيف لهذا الموجود أن لا يعادي الحياة من خلال عدم معاداة أشكال الإبداع (المرض، والموت...) التي يتوهم منها العداة والصراع، وهو منغلق على اعتقاد راسخ لاواع بأنها تمثل الشر بفعل الفهم السيئ لعلاقته كموجود بالوجود. لذا، فالحكمة التي يمكن أن تعلمنا إياها الفلسفة هي الفهم الغائي للوجود وتحديد موقعنا وعلاقتنا بهذه الغائية، وهو ما يمكن أن يصحح العلاقة السببية التي هي إحدى ركائز الميثافيزيقيا العدائية للوجود كمجال للصراع من أجل حفظ الكينونة، بما يحقق وعيا أكثر رحابة وعمقا. وعيا يدرك تجليات التناغم والانسجام في الوجود بما فيه وجودنا الذاتي، فليست كينونتنا سوى امتداد للكينونة العامة المحايثة للوجود (باروخ سبينوزا، 2009).

خاتمة:

إن المتأمل في الوقائع والسابر لأغوار الأحداث المترافقة مع ظهور كوفيد19، يخلص إلى أن البشرية اليوم تسير في اتجاه تعادي فيه ذاتها بمعاداتها لشروطها الوجودية، والذي ليس الوجود بعمومه سوى شرطها الأنطولوجي، أي بمثابة التربة والماء والهواء، الذي تنمو ضمنه وبناء عليه مختلف الشروط الوجودية الأخرى للإنسان(البيولوجية، الاجتماعية، السياسية، الاقتصادية...). ولئن كان الإنسان اليوم يعادي شروطه الوجودية من خلال عدة مظاهر لهذه العداوة الفجة: استنزاف الموارد الطبيعية؛ التغيرات المناخية؛ التعديل الوراثي؛ الاستبداد السياسي؛ الحروب؛ الفقر واللاعدالة الاقتصادية والاجتماعية... فإنه بذلك، يعادي وجوده الخاص الذي لا يستقيم إلا بها، فهي إياه وهو إياها.

وبالمحصلة، فلم يكن العمل على الكشف عن مكامن ومظاهر تلك الميثافيزيقا المعادية للوجود اللاواعية، وهو ما تغيبناه من دراستنا هاته بداية، سوى مدخل لتشكيل وبناء ميثافيزيقا واعية تصالح الإنسان كموجود مع الوجود، بالتزامن مع الإشارات القوية على تقادم أزمة الإنسان المعاصر الوجودية كما أظهرتها تداعيات فيروس كوفيد19. فأى مستقبل للإنسان الحديث إن لم تخرجه مثل هذه الأزمات من سطوة ميثافيزيقاه المعادية للوجود الهدامة؟

قائمة المراجع:

1. أرتور شوبنهاور(2003)، العالم إرادة وتمثلا، ترجمة وتقديم وشرح سعيد توفيق، مراجعة على النص الألماني فاطمة مسعود، الطبعة الأولى، المركز القومي للترجمة، القاهرة.
2. أرسطو طالبس(2014)، الكون والفساد، ترجمة أحمد لطفي السيد، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، جمهورية مصر العربية.
3. باروخ سبينوزا(2009)، علم الأخلاق، ترجمة جلال الدين سعيد، الطبعة الأولى، المنظمة العربية للترجمة، بيروت.
4. بول ريكور، محاضرات في الأيديولوجيا واليوتوبيا، دار الكتاب الجديدة المتحدة، بيروت، لبنان.
5. دورثي اتشكروفرود(2014)، الفيروسات، مقدمة قصيرة جدا، ترجمة أسامة فاروق حسن، مراجعة هاني فتحي سليمان، الطبعة الأولى، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة.
6. سيغمووند فرويد(1982)، الأنا والهو، ترجمة محمد عثمان نجاتي، الطبعة الرابعة، دار الشروق.
7. لمزيد من التفاصيل حول الحفر الجينالوجي لمنظومة القيم الاخلاقية أنظر: فريدريك نيتشه(2010)، جينالوجيا الأخلاق، ترجمة فتحي المسكيني، الطبعة الأولى، المركز الوطني للترجمة، تونس.
8. مارتين هايدغر(2002)، كتابات أساسية: الجزء الثاني، ترجمة وتحرير إسماعيل المصدق، الطبعة الأولى، المجلس الأعلى للثقافة.

- 9.مارتن هايدغر(2015)، مدخل الى الميثافيزيقا، ترجمة عماد نبيل، الطبعة الأولى، دار الفارابي بيروت، لبنان.
10. مارتن هايدغر(2015)، الفلسفة، الهوية وبالذات، ، ترجمة محمد مزيان، مراجعة محمد سبيلا، الطبعة الأولى، منشورات ضفاف.
- 11.ميشيل فوكو(1990)، المراقبة والعاقبة، ولادة السجن، ترجمة على مقلد، مراجعة وتقديم مطاع صفدي، مركز الإنماء القومي، بيروت.
- 12.الوتشيانو فلوريدي(سبتمبر2017)، الثورة الرابعة، ترجمة لؤي عبد المجيد السيد، سلسلة عالم المعرفة الكويتية.
- 13.وليم جيمس(2014)، البراغماتية، ترجمة وليد شحادة، الطبعة الأولى، دار الفرقد للطباعة النشر والتوزيع، دمشق.
- 14.يورغن هابرماس(2003)، العلم والتقنية كإيديولوجيا، ترجمة حسن صقر، الطبعة الأولى، منشورات الجمل، كولونيا، ألمانيا.